الفصل الثاني

إسقاط الفاسد من رواية الشعر

لابن هشام (عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري ت ٢١٨هـ) منهج متميز في رواية شعر السيرة، يقوم في أساسه على الضبط والاتقان والتوثيق، فهو يسند مروياته إلى أشياخه من علماء البصرة، وهم أبو زيد الأنصاري، وأبو عبيدة معمر بن المثنى، ويونس النحوي، وخلف الأحمر، ولعله إليهم يقصد أيضاً بقوله في تعميم سند مروياته: «حدثني من أثق به من أهل العلم في الشعر» أو قوله: «وأكثر أهل العلم ينكرها...».

ومهما يكن نصيب هذا المنهج من الدقة والصواب أو التعصب، فقد سبق ابن هشام غيره من الرواة إلى منهجيّة الإحسان في الرواية بظاهرتين:

الأولى: رواية ما كان حقاً من الأخبار من حيث صحته وضبط نسبته وسنده.
الثانية: رواية ما حسن من الشعر بوجه عام، إذ لم يفرق بين شاعر مسلم وآخر جاهلي مشرك، عند اسقاط ما فسد من الشعر، ما دام هجاءً مقذعاً قبيحاً.

وجاء تحديد ذلك في مقدمته: «وأنا ـ إن شاء الله ـ مبتدىء هذا الكتاب... وتارك بعض ما ذكره ابن اسحاق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شيء، وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب، ولا تفسيراً له، ولا شاهداً عليه، لما ذكرت من الاختصار، وأشعاراً ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها، وأشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس

ذكره، وبعض لم يُقِرَّ لنا البكائي[1] بروايته، ومستقصي ـ إن شاء الله تعالى ـ ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له والعلم به»[2].

وقبل الشروع في تفصيل منهجه في إسقاط ما فسد من معاني الهجاء، يحسن الإشارة إلى أسلوب آخر يتصل بالإحسان بسبب، وهو إبدال بعض ألفاظ النص الشعري حياداً به عن رواية السوء، من ذلك قول الحارث بن هشام:

ألا يا لقومي للصبابة والهجر ... وللحزن مني والحرارة في الصدرِ
. . . فَيالَ لُؤَيٍّ ذَبِّبُوا عن حَريمِكُمْ ... وآلهةٍ لا تتركوها لذي الفخرِ
تَوَارَثَها آباؤُكُمُ وَوَرِثْتُمُ ... أَواسِيَّهَا والبَيْتَ ذا السُّقفِ والسِّتْرِ
فما لحليم قد أراد هلاككم ... فلا تعذروهُ آل غالبَ من عُذْرِ

«قال ابن هشام: أبدلنا من هذه القصيدة كلمتين مما روى ابن اسحاق، وهما «الفخر» في آخر البيت، و«فما لحليم» في أول البيت، لأنه نال فيهما من النبي صلى الله عليه وسلم»[3].

وفي هذا الابدال تأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وموضوعية في النص على مواضعه، ودراية في حسن اختيار اللفظ البديل.

وبمثل هذا الابدال جاء تغيير ابن هشام لعجز بيت كامل في قصيدة ابن الزبعرى في غزوة الخندق التي يقول فيها[4]:

حتى إذا وردوا المدينة وارتدوا ... للموت كل مجرب قضّابِ
شهراً وعشراً قاهرين محمداً ... وصحابه في الحرب خير صِحابِ

(١) هو زياد بن عبد الله البكائي، أحد أشياخ ابن هشام، وكان محدثاً.
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ١٩.
(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٧٦١-٧٦٢.
(٤) المصدر نفسه ٣/ ١٠٧٠.

نادوا برحلتهم صبيحة قلتُمُ كدنا نكون بها مع الخُيَّابِ

وعلى الرغم من أن التصرف ظاهر في عجز البيت «وصحابه في الحرب خير صحاب»، إذ ليس من هم ابن الزبعرى أن يخلع الخيرية على أعدائه، فإن ابن هشام ليس بدعاً في هذا التصرف، إذ لا يخرج فيه عن صنيع الرواة، حيث كانت « قديماً تصلح من أشعار القدماء»[1] لكن كثيراً منهم كانوا «يفسدون الأشعار ويوردون كثيراً من الأبيات في غير مواضعها»[2].

لكن السؤال الذي يفرض نفسه في هذا المجال هو: لماذا لم يسقط ابن هشام هذه الأبيات جرياً على منهجه الأعم في إسقاط الشعر الفاسد من الرواية؟

لعل مما سوغ هذا الابدال دون الاسقاط ارتباط هذه الأبيات بجانب من دلالة علمية أو اجتماعية أو تاريخية، وفي منهجه ما يبيح رواية الشعر ولو كان منحولاً إذا حمل دلالة على قدر من الأهمية؛ ففي نقيضتي علي بن أبي طالب والحارث بن هشام في يوم بدر، قدّم ابن هشام لهما بقوله: «ولم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ولا نقيضتها، وإنما كتبناهما لأنه يقال: إن عمرو بن عبد الله بن جدعان قتل يوم بدر، ولم يذكره ابن اسحاق في القتلى، وذكره في هذا الشعر»[3].

ويظل هذا الابدال محدوداً جداً في منهج ابن هشام وبهذين النموذجين المشار إليهما، أما إسقاط الأبيات المقذعة المعاني فهو الأكثر دوراناً ووضوحاً في منهجه.

وموقف ابن هشام من الاقذاع في الهجاء متوحد باطراد سواء أكان ذلك عند شعراء المشركين أو شعراء المسلمين، ففي قصيدة أبي طالب التي يُعَرِّض فيها بالمطعم بن عدي ويعمُّ من خذله من عبد مناف ومن عاداه من قبائل قريش، لأنه أبى خذلان رسول

---

(١) المزرباني: الموشح ١١٤.

(٢) ابن السيد البطليوسي: الاقتضاب ٣٨١.

(٣) ابن هشام: السيرة ٢/٧٦٣.

الله صلى الله عليه وسلم بإسلامه إليهم:

أَلا قُلْ لِعَمْرٍو والوَلِيدِ ومُطْعِمٍ ... أَلا لَيْتَ حَظِّي من حِيَاطَتِكُمْ بَكْرُ
من الخُورِ حَبْحَابٌ كَثِيرٌ رُغَاؤُهُ ... يُرَشُّ على الساقين من بوله قطر

. . . الأبيات

«قال ابن هشام: تركنا منها بيتين أقذع فيهما»[1].

وفي قصيدة الجون بن أبي الجون التي يفتخر فيها بقتل الوليد بن المغيرة:

أَلا زعم المغيرة أن كعباً ... بمكة منهم قَدْرٌ كبيرُ

«قال ابن هشام: تركنا منها بيتاً واحداً أقذع فيه»[2].

والمشركون في النماذج السابقة هم متعلق هذا الإقذاع الذي أسقطه ابن هشام من روايته، ولما تجاذب المشركون والمسلون أطراف النقائض بإقذاع وإفحاش، حكَّم فيها ابن هشام المقياس ذاته، فأسقط أحياناً بعض الأبيات وأسقط بعض القصائد أحياناً أخرى.

ففي قصيدة عبد الله بن الزبعرى التي يرد بها على قصيدة لأبي بكر، ومطلعها:

أمن رسم دار أقفرت بالعثاعث ... بكيت بعين دمعها غير لابث
. . . فابلغ أبا بكر لديك رسالة ... فما أنت عن أعراض فهر بماكث

قال ابن هشام: «تركنا منها بيتاً واحداً، وأكثر أهل العلم بالشعر ينكر هذه القصيدة لابن الزبعرى»[3].

وفي قصيدة أمية بن أبي الصلت الثقفي في رثاء قتلى بدر قال ابن هشام: «تركنا

---

(١) المصدر السابق: ١/٢٧٩.
(٢) المصدر السابق: ١/٤٣٨.
(٣) المصدر السابق: ٢/٦٣٠.

منها بيتين نال فيهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم»[1].

ولا تسعف مصادر الرواية والرواة في الوقوف على معاني الأبيات المحذوفة من هذه النصوص في شعر المشركين لأسباب عقدية اختيارية كما سبق بيان ذلك[2]، لكن الحال مختلف بالنسبة لشعر المسلمين في هجاء المشركين، فقد حفظت الرواية الشعرية بعض الدواوين مثل ديوان حسان بن ثابت، بما يجعل إدراك حقيقة الإحسان في منهج ابن هشام أمراً ممكناً، باستدراك الأبيات المحذوفة عن طريق رواية الديوان.

ففي معركة بدر قال حسان بن ثابت في الحارث بن هشام:

يا حارِ قد عَوَّلتَ غير مُعَوَّلِ ... عند الهياجِ وساعَةَ الأَحسابِ
إذ تَمْتَطي سُرُحَ اليَدَيْنِ نَجِيبَةً ... مَرْطَى الجِراءِ طَويلةَ الأقرابِ[3]
والقوم خلفك قد تَرَكْتَ قتالَهُمْ ... ترجو النَّجاءَ وليس حيْنَ ذهابِ
ألَّا عَطَفْتَ على ابنِ أُمِّكَ إذ ثوى ... قَعْصَ الأَسِنَّةِ ضائِعَ الأَسْلابِ[4]
عَجِلَ المليكُ له فَأَهْلَكَ جَمْعَهُ ... بِشَنَارِ مُخْزِيةٍ وسوءِ عَذابِ[5]

«قال ابن هشام: تركنا منها بيتاً واحداً أقذع فيه»[6]

والبيت الذي تركه ابن هشام هجاء صريح بأسلوب التحقير في نسب الحارث من جهة أمه إذ يقول[7]:

---

(١) المصدر السابق: ٢/ ٧٩٠.

(٢) انظر الفصل الثالث من الباب الأول ص١٣٤-١٣٩.

(٣) سرح اليدين: يقصد فرساً سريعة، ونجيبة: ذكية، ومرطى الجراء: سريعة الجري، والأقراب: الخواصر.

(٤) ابن أمك: أراد به أبا جهل، والقعص: القتل بسرعة، والأسلاب: ما أخذ من سلاح أو ثوب.

(٥) الشنار: العار.

(٦) ابن هشام: السيرة ٢/ ٧٧٥.

(٧) حسان بن ثابت: ديوانه ١/ ٢٩٨. والضنءُ: كثرة النسل، أبليتها حسنى: صنعت حسناً.

لو كنت ضَنْءَ كريمة أبليتها حُسنى ولكن ضَنءُ بِنْتِ عُقابِ

فهو يخرجه عن الإحسان لأنه من نسل غير كريم، لأن أم الحارث كانت من نسل إحدى إماء عقاب، وهو عبد كان لبني تغلب، وكانت بناته إماء، وبعضهن عند الفرامضة الكلبي.

ومما قاله حسان بن ثابت في الحارث بن هشام أيضاً في معركة بدر بعد فراره منها:

تبلت فؤادك في المنام خريدة تشفي الضجيع ببارد بسام
... إن كنت كاذبة الذي حدثتني فنجوت منجى الحارث بن هشام
... الأبيات

«قال ابن هشام: تركنا من قصيدة حسان ثلاثة أبيات من آخرها لأنه أقذع فيها»[1].

ومعاني الأبيات المتروكة تدور حول الجبن والخور في الحرب، والقعود دون المكارم؛ لأنه من قوم تناسلوا من جد غير كريم، فضلاً عن التشفي بالقتل بتصوير المقتول (أبي جهل) تصويراً متهكماً ساخراً، يقول حسان[2]:

فسلحت إنك من معشر خانةٍ سُلْحٍ إذا حضر القتال لئام
فدع المكارم إن قومك أسرةٌ من ولد شجع غير جد كرام
ومرنح فيه الأسنة شُرَّعاً كالجفر غير مقابل الأعمام

ولا شك أن الأبيات تحمل هجاء مقذعاً للحارث بن هشام سلك فيه حسان سبيل المفاضلة لتحقير نسبه وتعييره بأنه «من ولد شجع غير جد كرام» إذ أن شجعاً بطن من

(١) ابن هشام: السيرة ٢/٧٧٤.
(٢) حسان بن ثابت: ديوانة ١/٣٠.

كنانة كانت تعيَّر به بنو مخزوم في الانتساب إليه، وصــوَّر الهلع بأبشع الصور عن طريق الايحاء «سلح إذا حضر القتال لئام» بانطلاق بطونهم لتسرع أدبارهم بإخراجه، وعن طريق تجسيد منظر أبي جهل بالشاة أو الجدي إذا انتفخ لحمها وتكرشت.

ولا شك أن هذا الهجاء بأساليبه هذه يؤذي الحارث بن هشام في الانتقاص من نسبه، والتشنيع عليه بالتشفي من قتل أخيه أبي جهل، خاصة بعد أن أضحى بنعمة الله مسلماً صحابياً بعد الفتح.

ويشتد الصــراع بين الإسلام والكفر بعد معركة أُحد، ويزداد الهجاء ضراوة، والإقذاع حدة وإفحاشاً بين الجانبين، ولم يكن ذلك قصراً على هجاء الرجال دون النساء، فهند بنت عتبة تعلو صخرة بعد مقتل حمزة رضي الله عنه وتقول:

نحـــنُ جَزَيْنَـاكــم بِيَوْمِ بَدْرِ والحربُ بَعْدَ الحربِ ذَاتُ سُعْرِ
. . . الأبيات

فأجابتها هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب:

خزيتِ في بدرٍ وبــعــد بدرِ يا بنــت وقَّــاع عظيم الـكـفــرِ
. . . الأبيات

«قال ابن هشام: تركنا منها ثلاثة أبيات أقذعت فيها»[1].

ومن الذين هجاهم حسان بن ثابت عتبة بن أبي وقاص الذي رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكسر رباعيته يوم أُحد:

إذا الله جازى معشــراً بفعــالهم ونصـرهم الـرحمن رب المشـارق
فأخـــزاك ربي يا عتيب بن مالـكٍ ولقاك قبل الموتِ إحدى الصواعق
بســطت يمـينــاً للنبـي تعمــداً فأدمـيت فاه قطعــت بالـبـــوارق

(١) ابن هشام: السيرة ٣/٨٧٣.

فهلا ذكرت الله والمنزل الذي تصير إليه عند إحدى البوائق

«قال ابن هشام: تركنا منها بيتين أقذع فيهما»[1].

والهجاء في البيتين اللذين أسقطهما ابن هشام متعلق برميه بالخزي في الدنيا والآخرة وتوعده[2]:

لقد كان خزياً في الحياة لقومه وفي البعث بعد الموت إحدى العوالق
فمن عاذري من عبد عُذْرَة بعدما هوى في دجوجيٍّ من البحر خافق

وأغلب الظن أن حذف هذين البيتين مرتبط بإكرام صحبة سعد بن أبي وقاص، فعتبة المهجو أخوه، مات كافراً، وليس في شيء من الآثار ما يدل على إسلامه.

وحذف ابن هشام التعيير بالمثالب النفسية والمخازي الخلقية المتعلقة بالسرقة المشهورة لبيت الله الحرام، وذلك من خلال رثاء حسان بن ثابت لخبيب بن عدي وهجاء قاتليه؛ أبي إهاب التميمي وأخيه لأمه الحارث بن عامر:

ما بال عينيك لا ترقا مدامعها سحّاً على الصدر مثل اللؤلؤ القلق
على خبيب فتى الفتيان قد علموا لا فَشِلَ حين تلقاه ولا نَزِقِ

«قال ابن هشام: وتركنا ما بقي منها لأنه أقذع فيها»[3].

والأبيات التي أسقطها ابن هشام هي:[4]:

أبا إهاب فبين لي حديثكمُ أين الغزال مُحَلًّى الدرِّ والورق[5]

---

(١) المصدر نفسه ٣/٨٦١.

(٢) حسان بن ثابت: ديوانه ١/١٦٢.

(٣) ابن هشام: السيرة ٣/٩٧٨.

(٤) حسان بن ثابت: ديوانه ١/٢١٣.

(٥) الغزال المقصود هو ذاك المصنوع من الذهب وهو أحد الغزالين اللذين نصبا على الكعبة بعد =

لا تذكـرن إذ كنـت مفـتـخـراً أبـا كُثَيْبَـةَ قد أسـرفـت في الحمق
ولا عزيزاً فإن الـعـذر منـقـصـة إن عزيزاً دقـيق الـنـفس والـخـلق

وفي الحارث بن عامر كانت أبيات حسان التي أسقطها ابن هشام إقذاعاً[1]:

سائـل بني الحـرث المـزري بمعشـره أين الـغـزال عليه الـدر من ذهـب
. . . جللت قومـك مخـزاة ومنقصـة ما لن يجـلله حي من الـعـرب
يا سالـب البيت ذي الأركـان حليتـه أد الـغـزال فلن يخـفـى لمـسـتـلب
بئس الـبـنـون وبئس الـشيخ شيخهم تبـاً لذلـك من شيخ ومـن عقـب

تلك حدود الإقذاع ومعانيه التي أخرجت بأساليب المفاضلة أو التفضيل والتهكم والسخرية والتعيير بالمثالب والمخازي الخلقية من الخيانة وسوء الفعل ودناءة النفس. أما الافحاش وسوء القول فقد خـص به حسان هند بنت عتبة في قصائد ثلاث: واحدة مطلعها:

أشـرت لكـاع وكـان عادتهـا لؤم إذا أشـرت مع الـكـفـر

«قال ابن هشام: وهذا البيت (اشرت لكاع. . .) في أبيات تركناها وأبياتاً أيضاً له على الدال، وأبياتاً أخر على الذال، لأنه أقذع فيها». إذ رمى حسان هند بنت عتبة بالزنا والسفاح وارتكاب الفاحشة فضلاً عن تهكم وسخرية في تصوير العورات، ولا شك أن هجاء حسان لهند سباب خالص، وتشهير فاضح، ولعل مما ينفي عنها ما رماها به حسان استنكارها أن تقع الحرة في الفاحشة وذلك في قولها: «أو تزني الحرة يا رسول الله!» وهو دهشة الفطرة حين سمعت الرسول عليه الصلاة والسلام يذكر لها وللنساء واجبات البيعة والإسلام بقوله: «والا تزنين».

ولكن هذا الإقذاع والإفحاش فيه واقعية مراعية للفن والخلق من ناحيتين:

= أن حفر عبد المطلب بئر زمزم، وقد سرقه أبو إهاب بالاشتراك مع الحارث بن عامر وأبي لهب.

(١) السيرة: ٣/٩٧٩، وديوان حسان ١/٣٧٠.

الأولى: أنه متناسب وطبع البداوة وذوقها الغليظ الذي لا يرى الهجاء موجعاً إلّا إذا خاض في الآباء والأمهات والعورات، ولا يراه مجيداً صائباً يستحق السيرورة والإذاعـة إلّا إذا كان هزلياً تملأ صوره الأشداق ضحكاً صاخباً صريحاً في الإبانة، منكشفاً في الدلالة[1].

والثانية: الصدق في تناوله المعائب وذكره المثالب، ودلالة ذلك نجدها في التوجيه والتلقي، فقد حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على إيجاع المشركين في أنسابهم بعد أن خاضوا في آباء المسلمين وأمهاتهم، ولذلك فهو يقول لحسان موجهاً له إلى الدقة والصدق: «أهجهم حسان وروح القدس معك، والق أبا بكر يعلمك هنات القوم» أو قوله: «لا تعجل فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها...»[2].

وعلم أبي بكر المتميز بالانساب جعلـه مؤهلاً لإرشاد حسان وتوجيه هجائه إلى المنـافذ التي يأتي منها قريشاً فيوجعها بها، ولم يكن وقع هذا الهجاء هيناً في نفوسهم، فقد حفلوا بالاستماع إليه، وأدركوا إصابته لأنسابهم ومثالب أحسابهم، ولذلك فإنه «لما بلغ أهل مكة شعر حسان، لم يكونوا علموا أنه قوله، جعلوا يقولون لقد قال أبو بكر الشعر بعدنا»[3] ولما أيقنت قريش أنه شعر حسان قالت: «إن هذا الشتم ما غاب عنه ابن أبي قحافة»[4].

وعلم أبي بكر في الأنساب وتوجيهه لحسان محصور في بيان مطاعن التسلسل والهجنة والصريح منها وما شابه شائبة، وذلك كله لا يجعله رديفاً لحسان فيما أفحش فيه، أو نال فيه من بعض الأمهات، ولذلك فإن اجتهاد أبي الفرج منكر في الكشف

---

(١) د. محمد محمد حسين: الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ص٢٤١.

(٢) رواه مسلم: صحيح مسلم ١٦/٤١، وفتح الباري ١٠/٥٤٧.

(٣) الأصفهاني: الأغاني ٤/١٤٠.

(٤) المصدر نفسه: ٤/١٣٩.

عن حقيقة هذا التوجيه إذ يقول: «فأتى (حسان) أبا بكر فأعلمه ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: كفَّ عن فلانة واذكر فلانة»[1]؛ لأنه خصص الارشاد بالنساء دون الرجال؛ ولأنه أطلق الذكر دون أن يقيده بالنسب.

ولم تكن هذه الواقعية التي عمادها الفن والصدق الخلقي في جانب منها بصارفة ابن هشام عن قناعته بأن هذا الهجاء كان مرغوباً فيه في مرحلة الإسلام الأولى، وأنه فقد مبررات روايته والرغبة فيه حين أضحى كثير من المهجوين بنعمة الله مسلمين، مثل الحارث بن هشام، وأبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن الزبعرى وهند بنت عتبة وغيرهم، وأن هجو من مات على الشرك من الآباء والأجداد إساءة بالغة لابنائهم وأحفادهم الذين أسلموا، فهو من باب شتم الحي بالميت، وقد جاء في ذلك حديث النسائي الذي أخرجه عن ابن عباس بإسناد صحيح: «أن رجلاً وقع في أب للعباس كان في الجاهلية فنظمه . . . وفيه «لا تسبو أمواتنا فتؤذوا أحياءنا»[2] إذ في ذلك من إثارة النفوس وبعث الأحقاد وفتح أبواب للشر ما يعسر إغلاقها.

ويزداد منهج ابن هشام في الإحسان وضوحاً بالنظر إلى ثنائه وتقريظه بالحسن قصيدة حسان بن ثابت التي يذكر فيها عدة أصحاب اللواء يوم أحد، ومطلعها:

مَنَعَ النَّومَ بالعشاءِ الهمومُ وخَيالٌ إذا تغور النُّجومُ

حيث قدّم لها بقوله: «هذه أحسن ما قيل»[3].

وعقب عليها بقوله: «قال ابن هشام: قال حسان هذه القصيدة (منع النوم بالعشاء الهموم) ليلاً، فدعا قومه، فقال لهم: خشيت أن يدركني أجلي قبل أن أصبح فلا تروها عني»[4].

---

(١) الأصفهاني: الأغاني ٤/١٣٩.

(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين (حاشية التحقيق) ٣/١٥٢.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٣/٩٣٧.

(٤) المصدر نفسه: ٣/٩٤١.

والإحسان الذي خلعه ابن هشام على القصيدة يمكن إدراك مقوماته من خلال تحليل سريع للقصيدة معنى ومبنى.

فقد وفق حسان في التعبير عن التماسك والثبات الذي لاذ بهما بعدما أصاب المسلمين من الملم الفادح في معركة أحد، وكان حديثه عن المرأة في مطلع القصيدة تنفيساً عن هذه القضيّة الجوهرية وذلك حين أجمل بالجمع الهموم المانعة للنوم، وفصل في خيال الحبيب النازل بدلالات معبرة عن الخسارة (أصاب، سقم، مكتوم) مخبرة بالهم:

منع النوم بالعشاء الهموم ... وخيال إذا تغور النجوم
من حبيب أصاب قلبك منه ... سَقَمٌ فهو داخل مكتوم

إلّا أن أمر هذا النازل بالقلب هين، لأنه واهن ضعيف، معتاد للين الحياة ونعومتها، وهو بذلك إنما يهون أمره، ويسري عن نفسه:

يا لقومي هل يقتل المرء مثلي ... واهن البطش والعظام سؤوم
لو يدب الحولي من ولد الذر ... عليها لأندبتها الكلوم
شأنها العطر والفراش ويعلو ... ها لجين ولؤلؤ منظوم

وعلى الرغم من تمام الهم وإحاطته وبلاغة أثره، إلّا أنه مفتقد للديمومة والاستمرار؛ لأن التبدل سنة الحياة، خاصة زمن الشباب الذي يقوم على الطيش والنزوة.

لم تفتها شمس النهار بشيء ... غير أن الشبابَ ليس يدوم

وينعطف حسان من ذلك إلى لقطات من ماضيه دالة على الأناة والحكمة عزاءً وأملاً بها لزوال الغمة، وحفزاً لنفسه على الثبات والتماسك.

إن خالـي خطيب جابـية الـجسو ... لان عنـد الـنـعـمـان حين يقـوم[1]
وأنـا الـصقـر عنـد باب ابن سلمى ... يوم نعـمـان في الـكبـول مقيم[2]
وأُبـيٌّ وواقـد أُطـلقـا لي ... يَوْمَ راحـا وَكَـبْـلُهُـمْ مَخْـطُومُ[3]
وَرَهَـنْـتُ الـيدين عنـهـم جميعـاً ... كلُّ كَفٍّ جُزْءٌ لهـا مَقْـسُـومُ[4]
وَسَـطتْ نسبتـي الـذوائبَ منهـم ... كلُّ دار فيهـا أب لي عظيم
وأبـي في سُمَيْحَـةَ الـقـائـل الفـا ... صِلُ يَوْمَ الـتـقـت عليه الـخـصـوم[5]

ومن ينتسب لهذه المآثر التاريخية ذات العراقة والشرف، يحق له أن يفخر على خصمه، وأن يفضله إذا كان بعيداً عن المعالي والسيادة:

تلك أفعـالنـا وفعل ابن الزبعرى ... خامـل فـي صديقـه مذمـومُ

ويلتمس لثبـاته وتماسكه عزاءً بشريف المعاني من الحكم والمواعظ، فيه غمز لجهالة قريش ونعيمها:

رب حلم أضـاعـه عدم الـمـا ... ل وجـهـل غطى عليه الـنـعـيمُ
إن دهـراً يبـور فيه ذوو الـعـلـ ... ـم لَدَهْـرٌ هو الـعَـتُـوُّ الـزَّنـيمُ
لا تَسُـبَّـنَّـنـي فَلَسْـتَ بِسِـبِّـي ... إن سِبِّـي من الـرجـال الـكـريم
ما أبـالـي أَنَـبَّ بالـحَـزْنِ تَيْسٌ ... أم لحـانـي بِظَهْـرِ الـغَـيْبِ لئـيمُ

(١) الجابية: الحوض الصغير، والجولان: موضع في الشام، وعنى بخاله: مسلمة بن مخلد بن الصامت، وعنى بالنعمان: بني جفنة من الغساسنة. والخطابة مما يختص بأمر الدين والسلطان.

(٢) الصقر: السيد الكريم، وابن سلمى: النعمان بن المنذر اللخمي، ونعمان: نعمان بن مالك... بن عوف وكان حبسه النعمان بن المنذر، فوفد فيه وفي غيره حسان بن ثابت فأطلقهم له.

(٣) واقد: هو واقد بن عمرو بن الاطنابة، وأُبي: هو أُبي بن كعب بن قيس...

(٤) رهنت اليدين عنهم: ضمنتهم، لأن الضامن يقول لصاحبه: لك يدي.

(٥) سميحة: بئر بالمدينة كان عندها احتكام الأوس والخزرج في الحرب، وكان ثابت بن المنذر والد حسان حكمهم.

ويلتقط أخيراً موقفاً عسكرياً من معركة أحد يدل على بلاء المسلمين على وجه العموم، ويزري به على قريش على وجه الخصوص، ذلك هو مصرع أصحاب اللواء، وهم أسرة من بني قصي، كان معهم لواء المشركين يوم أُحد، وقد قُتلوا جميعاً.

وَلِيَ البأس منكم إذ رَحَلْتُمْ ... أُسْرَةٌ من بني قُصَيٍّ صَمِيْمُ
تسعةٌ تَحْمِلُ اللواءَ وطَارَتْ ... في رعاع من القنا مخزومُ
وأقاموا حتى أبيحوا جميعاً ... في مقامٍ وَكُلُّهُمْ مذموم
بدمٍ عانك وكان حِفَاظاً ... أن يقيموا إن الكريمَ كريمُ
وأقاموا حتى أزيروا شعوبا ... والقنا في نحورهم محطومُ
وقريشٌ تَفِرُّ منا لواذاً ... أن يقيموا وخفَّ منها الحلومُ
لم تطق حمله العواتق منهم ... إنما يحمل اللواءَ النجومُ

وقد ضمن حسان هذا الموقف الذي أبطأ في تصويره تغنياً بالنصر، وهجاءً لقريش بما كان من بني عبد الدار الذي قُتلوا جميعاً في هذه المعركة، فقلب بذلك حسان الهزيمة نصراً ببراعة وحسن دلالة.

وهذا الهجاء موجع من غير إقذاع أو إفحاش، يعتمد الصدق في المفاضلة أو التفضيل، ويقوم على الدراية الفنية في الغمز بالمنزلة، والتعريض بالموقف المذل الملحق العار بصاحبه، ولعله لذلك كان استحسان ابن هشام لهذه القصيدة.

ولعل مما يعزز هذا التصور أن النقاد استحسنوا قصيدة حسان في هجاء هوازن:

أبلغ هوازن أعلاها وأسفلها ... أن لست هاجيها إلا بما فيها
قبيلة الأم الأحياء أكرمها ... وأعذر الناس بالجيران وافيها
وشر من يحضر الأمصار حاضرها ... وشر بادية الأعراب باديها
تبلى عظامهم إما هُمُ دفنوا ... تحت التراب ولا تفنى مخازيها
كأن أسنانهم من خبث طعمتهم ... أظفار خاتنة كلّت مواسيها

«فقد شهد النقاد أن هذا الشعر هو أجود ما يقال من الهجاء وأخبثه وأشده وقعاً في النفس»[1].

وقبل أن نقوّم منهج ابن هشام في رواية شعر السيرة لا بد من الإشارة إلى أمرين هامين يفرضهما الحديث عن هجاء حسان ومناقضاته.

الأول: أن كثرة الإشارة إلى شعر حسان بن ثابت بالاقذاع في منهج ابن هشام في السيرة لا ينبغي أن يحمل على القول: «ينفرد حسان بالافحاش في القول دون سائر المسلمين والمشركين»[2].

فقد فرض اختيار حسان للنهوض بتناول «الأنساب والمثالب» في نقائضه لقريش وشعرائها مهمة ثنائية عسيرة، فيها الدفاع عن حرمات المسلمين بالطعن في أنساب المشركين آباءً وأمهات، وتسفيه مفاخرهم على وجه العموم، وفيها الدقة والحذر في تناول من يجمعهم برسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة أو نسب على وجه الخصوص، فقد روى الإمام مسلم عن عائشة قالت: قال حسان: يا رسول الله! ائذن لي في أبي سفيان قال: كيف بقرابتي منه؟ قال: والذي أكرمك لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من الخمير، فقال حسان:

وإن سنام المجد من آل هاشم بنو مخزوم ووالدك العبد»[3]

وهذه المهمة شارة تميّزه عن صاحبيه عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك، وإن كانت لا تنقص من شأنهما في مجال كل منهما الذي برع فيه؛ من إعابة بالكفر وتعيير بالوقائع والأيام.

وإذا أضفنا إلى ذلك ما سبق بيانه من اسقاط الرواة والشعراء أنفسهم لهذا الشعر،

---

(١) د. إحسان النص: حسان بن ثابت ص ١٤٨ نقلاً عن ديوانه ص٧٦ ط ليدين.

(٢) د. محمد طاهر درويش: حسان بن ثابت ص ٣٨٤.

(٣) صحيح الإمام مسلم: ١٦/٤٧ وأخرجه البخاري في باب الأدب برقم ٦١٥٠.

فإن شعر حسان الموجود الذي رواه السكري يُعد دليلاً على شعر المشركين الفاحش المفقود؛ لأنه من جنسه وجرى في ميدانه، فمن الجور اتهام شعر حسان صراحة، وتبرئة شعر المشركين ضمناً.

على أن للنحل دوراً بارزاً في شعر حسان، وقد أشار إليه الأصمعي بقوله: «تنسب إليه أشعار لا تصح عنه» ونبه عليه ابن سلام بقوله: «وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد، لما تعاضهت قريش واستبَّت، وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تُنقَّى»[1]. وكان ابن هشام قد حدد بعض ما أنكره أهل العلم بالشعر من قصائده، ومنها ما كان فيه إقذاع فأسقطه، كما في قصيدتي حسان في رثاء خبيب، قال ابن هشام في القصيدة الأولى: «وتركنا ما بقي منها لأنه أقذع فيها»[2] وقال في الثانية: «وهذه القصيدة مثل التي قبلها، وبعض أهل العلم بالشعر ينكرهما لحسان، وقد تركنا أشياء قالها حسان في أمر خبيب لما ذكرت»[3].

الثاني: شرعية هذا الإقذاع

رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرد على المشركين بمثل قولهم، فعن عمار بن ياسر قال: لما هجانا المشركون شكونا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «قولوا لهم كما يقولون لكم»[4].

وهذه الرخصة عامة تنتظم المجالات التي خاض فيها المشركون قدحاً في أنساب المسلمين وتعييراً بمثالبهم، إلا أنه يخصص من عمومها في مناظرة القول ومثليته دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ودعائه لحسان «أجب عني، اللهم أيده بروح القدس»[5]

---

(١) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/٢١٦ وفي رواية «ووضعوا عليه أشعاراً لا تليق به».

(٢) ابن هشام: السيرة ٣/٩٧٨.

(٣) المصدر نفسه ٣/٩٧٩.

(٤) رواه أحمد والبزار بنحوه والطبراني، ورجالهم ثقات (الهيثمي: مجمع الزوائد ٨/١٢٣-١٢٤).

(٥) رواه مسلم: صحيح مسلم ١٦/٤٥.

وتقييده لذلك التأييد بالمنافحة عن الله ورسوله كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها: «إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله»[1].

وتأييد روح القدس لحسان مخصوص بما كان حقاً من شعر هجاء الأنساب دون غيره، لأن ما كان إفحاشاً وإقذاعاً في تناول النساء وقذفهن، إنما مصدره النفس الأمّارة، يقول ابن تيمية: «إن الشعر يكون من الشيطان تارة، ويكون من النفس أخرى، كما أنه إذا كان حقاً يكون من روح القدس، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت: اللهم أيده بروح القدس، وقال: اهجهم وهاجهم وجبرائيل معك، فلما نفى قسم الشيطان، نفى قسم النفس»[2].

فهجاء حسان وإقذاعه كان دفعاً لعدوان قريش ومشركي العرب على المسلمين الذي تجاوز كل حد، وهو يكتسب شرعيته لأنه ممن ﴿وانتصروا من بعد ما ظلموا﴾ ويجري في حدود ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾؛ والانتصار إنما يكون بالحق كما يقول القرطبي، وبما حدّه الله عز وجل، فإذا تجاوز ذلك فقد انتصر بالباطل، وبذلك كان توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم لشعراء المسلمين بالانتصار من المشركين والرد عليهم «انتصروا ولا تقولوا إلا حقاً، ولا تذكروا الآباء والأمهات»[3].

وربما كان لفاحش شعر حسان جانب من شرعية في قول الرسول صلى الله عليه وسلم «إذا رأيتم الرجل يتعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا»[4] ولما سمع أبو بكر رضي الله عنه عروَة بن مسعود الثقفي يقول: «وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا

---

(١) رواه مسلم: صحيح مسلم ١٦/٥١.

(٢) ابن تيمية: الفتاوى جـ٢/٥١.

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٣/١٥٣.

(٤) رواه أحمد: مسند الإمام أحمد ج٥/١٣٦ ورواه الطبراني في المعجم الكبير ورجاله ثقات (الهيثمي: مجمع الزوائد ٣/٣).

عنك غداً» قال: «امصص بظر اللات أنحن ننكشف عنه»[1]

وعلى الرغم من أن الحديث النبوي يسوي بين كل من حسان وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك في رضى الرسول صلى الله عليه وسلم عن سرعة أثر شعرهم في إيذاء قريش بقوله لحسان «إنه لأسرع فيهم من رشق النبل» وقوله لعبد الله بن رواحة «لهو أسرع فيهم من نضح النبل وقوله لكعب: «لهي أشد عليهم من رشق النبل»[2] إلا أنه يفرد ابن رواحة بمجانبة الفحش وما يدور في مداره إذ يقول عليه الصلاة والسلام: «إن أخاً لكم لا يقول الرفث»[3] فهل في هذا التفريد لابن رواحة ما يوحي بعدم الرضى عن شعر حسان الفاحش؟

أياً كان توجيه هذا التفرد من خلال هذه التسوية فإنه لا دليل على سماع الرسول صلى الله عليه وسلم لكل ما كان يقول حسان من شعر بشكل عام ولهذا الشعر المقذع في فحشه بشكل خاص، على الرغم من أنه بنى له منبراً في مسجده عليه الصلاة والسلام لينشد من عليه شعره، لأن حديث أسماء بنت أبي بكر في هذا المجال ضعيف.

فعنها أنها قالت: مرّ الزبير بن العوام بمجلس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وحسان بن ثابت ينشدهم من شعره، وهم غير نشاط لما يسمعون، فجلس الزبير معهم وقال: مالي أراكم غير أذني لما تسمعون من شعر ابن الفريعة، فلقد كان يعرض

---

(١) ابن هشام: السيرة ٣/١١٣٩.

(٢) الأحاديث على التوالي في (صحيح مسلم ١٦/ وسنن النسائي ٥/١٥٩-١٦٠ والمحاسن والمساوىء للبيهقي ٢٥٣) وتجدر الإشارة إلى تعليق الأستاذ محمود شاكر وفهمه العميق لرواية ابن سلام للحديث (اهجهم، كأنك تنضحهم بالنبل) قال: نضح القوم بالنبل نضحاً: رشقهم به رشقاً متفرقاً، أمره بأن يجرحهم جرحاً لا يبلغ الطعن البعيد الفاحش، وهذا أكرم الأدب (طبقات فحول الشعراء (حاشية التحقيق) ١/٢١٧.

(٣) رواه البخاري: صحيح البخاري ٢/٤٦.

به لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيحسن استماعه، ويجزل عليه ثوابه، ولا يشتغل عنه بشيء»[1].

ويظل منهج ابن هشام بعد ذلك كله قائماً على الإحسان في اتخاذ الموقف الإيجابي مما فسد من المعاني عن طريق إسقاطها أو حذفها، وهو يقوم على رؤية موضوعية للقبح أنّى كان مصدره، أو انتماؤه للجاهلية أو الإسلام.

ولم يفطن الباحثون والمحققون لدلالة هذا الإسقاط على الإحسان أو الموقف الإيجابي من القبح، وإنما انصرف بعضهم إلى نفي الشك الذي حاول به عدد من المستشرقين وتلامذتهم نسف هذا الشعر من أساسه، بالعناية بأدوات ابن هشام في تحقيق ما أورده ابن اسحاق من شعر[2].

وأسف أكثر المحققين لسيرة ابن اسحق ولفعل ابن هشام، لأنه أفقد الباحثين كثيراً من المعلومات التي يستعان بها على كشف التيارات المختلفة التي سادت الفترة التي تؤرخ لها السيرة.

يقول محمد حميد الله في مقدمة سيرة ابن اسحق: «وكان هناك أشعار كثيرة في أصل الكتاب حذفها ابن هشام، وكل من يشتغل بآداب العصر النبوي يتأسف على ما فعل ابن هشام من حذفها».

وفي مقدمة السير والمغازي يقول سهيل زكار: «ومع أن معرفة ابن اسحق بالشعر لم تكن على ما يرام الا أنه كان بوسع ابن هشام أن يدع ذلك لعلماء الشعر، وأن لا يستبقهم بحذف أو تبديل كهذا»[3].

---

(١) رواه الطبراني وفيه عبد الله بن مصعب وهو ضعيف (الهيثمي: مجمع الزوائد ٨/١٢٥).

(٢) انظر: ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي ص ٣٥٢ طه حسين: في الأدب الجاهلي ص٣٥٢، د. إسماعيل العالم: منهج ابن هشام في رواية الشعر مجلة أبحاث اليرموك.
وبلاشير: تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) ص١٨٤.

(٣) سهيل زكار: مقدمة السير والمغازي ص١٥.

وتقول د. فاطمة نجا: «وعلينا أن لا ننسى أن هذا الشعر بنوعيه الموضوع والصحيح يُلقي ضوءاً على التيارات السياسية المعاصرة للحدث»[1].

وجرى المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد ت ٢٨٥) وفق هذا المنهج الذي ينضبط بالإحسان أسلوباً في رواية الشعر، فلم يرو المقذع أو السيء من القول تديناً وورعاً، من ذلك ما جاء في كتاب معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب، حيث كتب إليه كتاباً جاء في آخره بشعر كعب بن جعيل الذي يقول فيه:

أرى الشام تكره ملك العراق ... وأهل العراق لهم كارهينا
وكلاً بصاحبه مبغضاً ... يرى كلَّ ما كان من ذاك دينا
إذا ما رمونا رميناهم ... ودنَّاهُمُ مثل ما يقرضونا
فقالوا عليٌّ إمام لنا ... فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا له ... فقلنا الا لا نرى أن ندينا
ومن دون ذلك خرط القتاد ... وضرب وطعن يُقِرُّ العيونا

قال المبرد: «وفي آخر هذا الشعر ذم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، أمسكنا عن ذكره». [2]

وكذلك فعل المبرد بشعر النجاشي أحد بني الحارث بن كعب الذي ضمنه علي بن أبي طالب رسالته التي بعث بها جواباً لمعاوية بن أبي سفيان، وهو قوله:

دعا يا معاوي ما لن يكونا ... فقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم علي يا أهل العراق ... وأهل الحجاز فما تصنعونا

قال المبرد: «وبعد هذا ما نمسك عنه»[3]

---

(١) د. فاطمة نجا: الغرر في سير المؤرخين وأخبارهم ص١٢٢.
(٢) المبرد: الكامل في اللغة والأدب ١/٣٢٧.
(٣) المصدر نفسه ١/٣٣١.

فالمبرد أخذ بالإحسان في عدم رواية ما فيه مساس بالصحابة هجواً وطعناً، إذ أمسك عنه تأدباً مع منزلتهم وقدرهم، وهو موقف إيجابي من رواية شعر الهجاء.

لكن المبرد لم يمسك عن رواية نقائض جرير والفرزدق وهجاء الأخطل، فهل يعني ذلك تباين منهج الإحسان عنده؟ أو أنه أخذ بالإحسان فيما يخص طبقة الصحابة رضي الله عنهم أدباً وإكراماً، وتجاهله في طبقة من سواهم؟

إن الباحث فيما أورده المبرد من هذه النقائض لا تعوزه الحيرة أو التردد في إصابة غرضه التعليمي في التأريخ والتفسير في مجال اللغة والأدب وما اتصل بهما من أخبار، قصداً للتعليق والنقد أو استطراداً للتوجيه بالمثل والشاهد، فمن ذلك ما جاء في تفسير كلمة «قرنبي» في قول الشاعر:

ألا يا عباد الله قلبي متيم ... بأحسن من صلى وأقبحهم بعلا
يدب على أحشائها كل ليلة ... دبيب القرنبي بات يقرد نقا سهلاً

قال المبرد: «القرنبي: دويبة على هيئة الخنفس منقطة الظهر، وربما كان في ظهرها نقطة حمراء، وفي قوائمها طول على الخنفس، وهي ضعيفة المشي، قال الفرزدق يعني عطية أبا جرير:

قرنبي يحك قفا مقرف ... لئيمٍ مآثرهُ قعدد

وفي هذا الشعر يقول:

ألم تر أنا بني دارم ... زرارة منا أبو معبد
. . . أيطلب مجد بني دارم ... عطية كالجعل الأسود
ومجد بني دارم دونه ... مكان السماكين والفرقد[1]

فهذا الشعر على ما فيه من إيذاء بالتحقير لوالد جرير، إنما سوغه المبرد بطلب النظير والمثال لدلالة «القرنبي» ثم حمله المنهج التاريخي على الاستطراد للحديث

(١) المصدر نفسه ٢/ ٧٤-٧٥.

عن دارم تأصيلاً لنسبها[1] فكان كل ذلك من باب الشيء بالشيء يذكر.

وكذلك يقال عمّا أورده المبرد من قصيدة الفرزدق يهجو جريراً ونقض جرير له في أمر قتيبة بن مسلم الباهلي، فمما قال الفرزدق:

أتاني وأهلي بالمدينة وقعة ... لآل تميم أقعدت كلّ قائم
أتغضب إن أذنا قتيبة حُزَّتا ... جهاراً ولم تغضب لقتل ابن خازم
وما أنت من قيس فتنتج دونها ... ولا من تميم في الرؤوس الأعاظم
أتخوفنا أيام قيس ولم تدع ... لعيلان أنفاً يستقيم الخياشم
فقد شهدت قيس فما كان نصرها ... قتيبة الا عَضَّها بالأباهم

ومما قال جرير:

تحضض يا بن القين قيساً ليجعلوا ... لقومك يوماً مثل يوم الأراقم
كأنك لم تشهد لقيطاً وحاجباً ... وعمرو بن عمرو إذا دعوا يال دارم
ولم تشهد الجونين والشعب ذا الصفا ... وشدّات قيس يوم دير الجماجم
فيوم الصفا كنتم عبيداً لعامر ... وبالجنو أصبحتم عبيد اللهازم
إذا عدت الأيام أخزين دارماً ... وتخزيك يا بن القين أيام اللهازم

فالقصيدتان تعبير بالوقائع والأيام والمواقف، وفيهما ما يتصل بمنهج كتاب الكامل، ولذلك انبرى المبرد يفسر ما تعلق بالأفراد والأعلام من جهة، مثل تعريفه بابن خازم[2] الذي جاء ذكره في قصيدة الفرزدق، وما تعلق بالوقائع والأيام من جهة أخرى، مثل تأريخه للجونين ودير الجماجم واللهازم[3] في قصيدة جرير، فالمسوغ لروايتهما الارتباط بالحقائق التاريخيّة والأحداث القبلية، وهو مسوغ نحى فيه المبرد القبح جانباً بالدلالة التاريخيّة.

(٢) انظر المصدر نفسه ٢/ ٧٦-٧٧.
(٢) المصدر نفسه ٢/ ٨٠.
(٣) المصدر نفسه ٤/ ٤٢.

وكأني بالمبرد لم يرض عن نقائض جرير والفرزدق، فلم يرو شعراً منها مستقلاً بغرض أو باب من أبواب الكتاب، إلا إذا اقتضى ذلك الخبر أو الاستطراد اللغوي أو التاريخي، بل إن المبرد يرى في النقائض ابتذالاً وفحشاً في المعاني المتداولة فيها بين الشعراء، دلَّ على ذلك تعريجه على قول الأخطل:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم ... قالوا لأُمهم بولي على النار

حيث أبدى المبرد استياءه من هذا التبذل والشتم من خلال ألم جرير وتوجعه منه بقوله: «فيقال إن جريراً توجع من هذا البيت وقال: جمع بهذه الكلمة ضروباً من الهجاء والشتم، منها البخل الفاحش، ومنها عقوق الأم في ابتذالها دون غيرها، ومنها تقذير الفناء، ومنها السوءة التي ذكرها عن الوالدة»[1].

والمختار من الهجاء عند المبرد ما كان ذماً للطبائع والأخلاق الخارجة عمّا ألِفَ العرب وجرت عليه أخلاقهم القويمة في حياتهم، من ذلك قول أعرابي يهجو قوماً بالبخل:

ولما رأيت بني جوين ... جلوساً ليس بينهم جليس
يئست من التي أقبلت أبغي ... لديهم إنني رجل يئوس
إذا ما قلت أيهم لأيٍّ ... تشابهت المناكب والرؤوس

قال المبرد: «قوله: جلوساً ليس بينهم جليس، يقول هؤلاء قوم لا ينتجع معروفهم فليس فيهم غيرهم، وهذا من أقبح الهجاء»[2].

ومن ذلك أيضاً رجل ينسب ابن عم له إلى اللؤم والتوحش:[3]

أحب شيء إليه أن يكون له ... حلقوم وادٍ له في جوفه غار
لا تعرف الريح ممساه ومُصْبَحَهُ ... ولا يُشَبُّ إذا أمسى له نار

(١) المصدر نفسه ٤/٤٢.
(٢) المصدر نفسه ١/١٧٢.
(٣) المصدر نفسه ٢/١٨٣.

وفي هدى من هذه المعاني في الكرم والضيافة وما يجري فيهما من مدح وذم، انعطف المبرد إلى تقويم أبيات لجرير في ظل قول قيس بن عاصم المنقري:

أيا بنـة عبـد الله وابـنـة مالـك ... ويا بنـة ذي البـردين والفـرس الـورد
إذا ما أصـبـت الـزاد فالـتـمـسي له ... أكـيلاً فإن غير آكـله وحـدي
قصـياً كريمـاً أو قريبـاً فإنـنـي ... أخـاف مذمّـات الأحـاديث من بعـدي
وإنـي لعـبـد الـضـيف ما دام ثاوياً ... ومـا من خلالي غيرهـا شيمـة العبـد

قال المبرد: «وقوله: قصياً كريماً من طريف المعاني، وذلك أنه لم يحتج إلى أن يشترط في نسبته الكرم؛ لأنه قد ضمن ذلك، واشترط في القصي أن يكون كريماً لأنه كره أن يكون مواكله غير كريم.

وهذا ليس من الباب الذي ذكره جرير حيث يقول في هجائه بني هزان:

ضيفـكـم جائـع إذا لم يبـت غزلاً ... وجـاركـم يا بنـي هزان مسـروق
رأيت هزان في أحـراح نسـوتـهـا ... رُحْبٌ وهـزان في أخـلاقهـا ضيق»[1]

لأن جريراً أفحش حين جعل وقاع نساء بني هزان شرطاً لقِرى ضيفهم وإشباعه، فضلاً عن هذه المفارقة الفاحشة بين استيعاب النساء للأضياف بذلك، وسرورهن بفعلهم، واستياء الرجال وضيقهم بهم.

والمبرد يرى الحسن في هذا المجال في طرافة المعنى وتهذيب أدائه، ولذلك كان كتابه مترفعاً عن مبتذل اللفظ وفاحش المعنى وساقطه، وفي الكناية عن ذلك ما يرفع من شأن المعنى إذ يقول: «ويكون من الكناية في ذلك أحسنها ـ الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره، قال تعالى، وله المثل الأعلى، ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾»[2].

(١) المصدر نفسه ٢/ ١٧٨ والأحراح: جمع جِرح وهو جِرح المرأة أو فرجها.
(٢) المصدر نفسه ٢/ ٣٩١ـ٢٩٢.

ولا يقتصر الإحسان في منهج الرواية عند المبرد على إسقاط المقذع من الهجاء، بل يطرد موقفه الإيجابي هذا في المجون أو ما يمس العقيدة من شعر، ففي نقده لقصيدة من شعر أبي نواس قال: «وله في قصيدة يمدح فيها العباس بن الفضل بن الربيع شيء يستملحه الأحداث، ويألفه المجان، وليس بذاك، وهو قوله:

نديم كأس محدث ملك تيه مغن وظرف زنديق

فهذا قول ملحون مرذول، رديء الرصف بعيده، وأما قوله:

كأنما رجلها قفا يدها رجل غلام يلهو بديوق

فهذا كلام خسيس، وكذلك قوله:

إلى فتى أمُّ ماله أبداً تسعى بجيب في الناس مشقوق

وفي آخرها ما جمع بين كفر ولحن، وأكره حكايته، لضعته وبطلانه»[1].

وتوقف ابن السيد البطليوسي (ت ٥٢٨هـ) عند بعض معاني شعر أبي العلاء المعري في لزومياته التي بدا واضحاً خروج المعري فيها على العقيدة لمحاً أو تصريحاً أو شكاً، خاصة فيما كان يعرضه من أمور الدين على ميزان عقله الذي كان يتطاول به، ويرفع من شأنه، فأسقط ابن السيد أبياتاً من روايته لهذا الشعر، فيما انتخب من قصائد في كتابه «شرح المختار من لزوميات أبي العلاء المعري».

وأثار إسقاط ابن السيد بعض هذه الأبيات الفقيه ابن العربي؛ أبا بكر محمد بن عبد الله المعافري الإشبيلي، فتتبعه في رسالة وضعها لذلك، فكتب ابن السيد في الرد عليه رسالة صغيرة «الانتصار ممن عدل عن الاستبصار».

فمن الأبيات التي أسقطها ابن السيد من شعر أبي العلاء المعري قوله:

أنت يا أدم السرب حوا ؤك حواء فيه أو أدماء

---

(١) المرزباني: الموشح ص ٢٤٣ ط السلفية.

قال ابن العربي: «هكذا وجدناه بخطك، وقد أسقطت منه جزءاً فأفسدت وزنه وصوابه».

أنت يا آد آدم السرب حوّا ذك حواء فيه أو أدماء

ورد ابن السيد عليه آخذاً بالإحسان منهجاً وبإسقاط الفاسد من الشعر أسلوباً بقوله: «وهذا البيت إنما أسقطناه من الشعر متعمدين لإسقاطه، لما فيه من الاستخفاف بآدم صلى الله عليه وسلم. وهكذا فعلنا بكثير من شعره، وإنما ذكرنا منه ما له تأويل حسن، فكيف أفسدت علينا الكتاب بإثباته، وكان يجب أن تتنزه عنه كما تنزهنا... أما معناه فلا حاجة بنا إلى ذكره، فاذكره أنت إن شئت كما ألحقته»(١).

والحق أن لزوميات أبي العلاء المعري تحمل تقلبه العقدي بين الشك واليقين، فلا أحد يشك عند قراءته لها أنه مؤمن بالله ووحدانيته وعدله، غير أن تعريضه بالغمز في بعض أحكام الشريعة الإسلامية، أعطى الناظرين في شعره دلائل الشك في تدينه، ورميه بالزندقة وبالإلحاد(٢)، وكما أن شواهد إيمانه في اللزوميات كثيرة، فإن دلائل شكه وقلقه العقدي وافرة فيها أيضاً، ومن أمثلتها قوله:

تناقضٌ ما لنا السكوت له وأن نعوذ بمولانا من النار
يد بخمس مئين عسجد وُدِيَتْ ما بالها قطعت في ربع دينار

ويرى ابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ) الرؤية ذاتها في شعر أبي العلاء المعري، إذ يصف آراءه في هذا المجال بالسخف الذي يكشف عن عمى البصيرة، وينشر مطوي السريرة، وتعقب لذلك من نظم على منواله من شعراء الأندلس، فأسقط مما جرى في ميدانه الشعر ذا المساس بالعقيدة، إذ جرّد قصيدة المنفتل أبي أحمد عبد العزيز بن خيرة القرطبي مما شانها، فبعد أن أورد مطلع القصيدة:

(١) الانتصار ممن عدل عن الاستبصار ص ١٦.

(٢) انظر عبد الكريم الخطيب: رهين المحبسين أبو العلاء المعري بين الإيمان والإلحاد ص٦٢-٦٧.

أحاجيكم هل يمموا الضال والسدرا أبى قلبي المعمود أن يسكن الصدرا

قال ابن بسام: «وهذا القصيد اندرج له من الغلو فيه، ما لا أثبته ولا أرويه، وأبعد الله المنفتل، فيما نظم فيه وفصل، وقبحه وقبّح ما أمّل»[1].

ولا يرى ابن بسام بأساً من رواية الشعر الماجن على الرغم من قبح موضوعه وسوء مضمونه ما دام مسوقاً بعبارة بعيدة عن الابتذال، مترفعة عن السقوط والإسفاف، لكنه يرى البأس كل البأس في المجون السافر القبح في أدائه، المتردي في ابتذال تعبيره، وفي المفارقة بين شعر أبي جعفر أحمد بن الأبار وعبد الجليل بن وهبون ما يوضح ذلك، فقد روى من شعر أبي جعفر بن الأبار قوله:

ومنعمٍ غضّ القطاف عذب الغروب للارتشاف
قد صيغ من درّ الجمـ ـان وصين في صدف العفاف
. . . فورعت في جنى الجنى وكففت عن فوق الكفاف
وعصيت سلطان الهوى وأطعت سلطان العفاف

قال ابن بسام: وما أملح هذه الملح، وما أقبح ما أنشدت في ضدها لعبد الجليل حيث يقول:

تعرض لي ليسقط في حبالي سقوط تعمد شبه اتفاق
وبات على المدامة لي نديما وبين جفونه للغنج ساقي
إلى أن مال من سنة الحميّا وقام الليل ممدود الرواق
وحلّ معاقد الهيمان عنه بِسُبْطٍ كان يعقدها رقاق
وصار على كرامته بساطاً ولفّتْ بيننا ساق بساق

وبعده ما أضربت عنه، وصنت كتابي منه»[2].

---

(١) ابن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ق١م٢ ص٧٦٤.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ق٢ م١ ص١٤٤.

ولولا أن ابن بسام كان مأخوذاً بالإعلان عن بلده والرعاية لأدبها، والتنبيه على منزلتها الفنيّة، لكان لمنهج الإحسان في روايته شأن متميز، إذ أنه ما فتىء يضرب عن بعض المجون ويسقط بعضاً في غير اطراد، فقد أتْبَعَ أبيات ابن الأبّار السابقة قصيدة ماجنة بما فيها من فحش المعاني، وبذيء الألفاظ، ومتبذل الدلالات، أولها:

زارني خيفة الرقيب مريباً يتشكّى القضيب منه الكثيبا

. . . الأبيات

وعقب على ذلك بقوله بما يوضح منهجه وغايته: «قال ابن بسام: ولقد ظرف ابن الأبّار واشتهر ما شاء وندر، وأظنه لو قدر على إبليس الذي تولى له نظم هذا السلك، وأوطأ له ثبج هذا الملك، لدب إليه، ووثب أيضاً عليه. وأبو نواس سهل هذا السبيل للناس»[1] «وقد قلت إن الحسن بن هانىء أكثر من هذه المعاني حتى منعه الأمين محمد بن هارون عن ذلك، وله في وصف الشراب، وما يتعلق بهذه الأسباب شعر كثير، واشتهار شعره يمنعني من ذكره»[2]. «وممن سلك هذا السبيل من الشعراء المجاهرين بالمجون، الناطقين بألسن الشياطين الفرزدق بقوله:

هما دلتاني من ثمانين قامةً كما انقض باز أفتخ الريش كاسره»[3]

«قال ابن بسام: والباب طويل، والإكثار مملول، وتتبع كل معنى يعترض يخرج بي عن الغرض، فإن سكت فترفيها، وإن ألمعت بشيء فدلالة على الأدب وتنبيهاً»[4].

وغير خاف تداخل عناصر منهج الإحسان في هذا النص، فمن تعقيب على

---

(١) الذخيرة ق٢ م١ ص١٥١.

(٢) الذخيرة ق٢ م١ ص١٥٢-١٥٣.

(٣) الذخيرة ق٢ م١ ص١٥٣.

(٤) الذخيرة ق٢ م١ ص١٥٥.

مجون ابن الأبّار قاصد إلى إلحاقه بالظرف والتندر، ورفض له بنسبته إلى إبليس فيما قدّم له، إلى إشارة إلى أبي نواس مسهل هذا السبيل، فإضراب عن شعره لشهرة أمره، وعزوف عن شعر الفرزدق الذي ينطق عن لسان الشياطين بما تنفث من شر، وتغري بفاحشة، وأخيراً إبانة عن أن غاية إيراد هذا المجون هو الترفيه، والدلالة على ألوان الأدب بطلب الشاهد والمثل، وتكامله بجمع الجد وبعض الهزل.

وللشريشي أبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي (ت ٦١٩هـ) موقف متوحد من مقذع الهجاء وفاحش المجون، إذ يسقط من الشعر المروي ما كان متعلقاً بهما، فقد أسقط من شعر أبي العنبس الصيمري أبياتاً في هجاء البحتري، وقد أمره بذلك المتوكل بعد أن ضجر من طريقة إنشاد البحتري وتشادقه وإعجابه بنفسه، يقول الصيمري:

أدخلت رأسك في الرَّحِمْ ... وعلمتَ أنك تنهزمْ
يا بحتري حذار ويحـ ... ـك من قضاقضةٍ ضُغُمْ
فبأي عرض تعتصم ... وبهتكه جف القلم
والله حلفةَ صادقٍ ... وبقبر أحمد والحرم
ووحق جعفرٍ الإما ... م بن الإمام المعتصم
لأحيِّرَنَّك شُهْرَةً ... بين المسيل إلى العَلَمْ
يا بن الثقيلة والثقيـ ... ـل على قلوب ذوي النعم
وعلى الصغير مع الكبـ ... ـير من الموالي والحشم

قال الشريشي: «وبعد هذا ما يقبح ذكره»[1]

وفي قول أبي نواس الحسن بن هانىء:

إذا هجع النِّيام فخلِّ عني ... وعمن كان يصلح للدبيب

(١) شرح مقامات الحريري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ١/٩٦.

فإنـــي عالـــم فطن أريب ولـم يخبـــرك مثـــل فتى أريب
ألـــذُّ الـــفـعـــل تأخـــذه سرورا بمنـــح الحب أو منـــع الـرقيب

قال الشريشي : «وبعد هذا ما يقبح ذكره، وشعر الحسن يكثر في هذا الباب»[1].

تلك مواقف إيجابية من رواية الفاسد من الشعر، بإسقاط ما كان هجاءً مقذعاً أو تجاوزاً عقدياً، أو مجوناً فاحشاً، وهي تعكس الإحسان بالبراءة من تبعة وزر رواية هذه المعاني.

(١) المصدر نفسه ٢/ ٩٤-٩٥.